رسائل النيل

الرسالة السادسة من اسنا الى اصوان

من توخّى مشاهدة الآثار القديمة وليس له الاّ ايام معدودات لا يستطيع ان يقف في كل مكان فيهِ آثار ولا ان يتفحّص كلّ اثر منها واذلك لم تقف فرق الاقصر الاّ في اسنا وادفو واصوان . وقد راقت لنا مباني اسنا المطلّة على النيل ولا سيّما لانها شيدت بالشيد حديثًا استعدادًا لزيارة سمو الخديوي المعظم . وهي مدينة لانوبوليس القديمة وقد ذكرها ابو الفدا وقال "ان بها حمامات واسواقًا وهي بين اصوان وقوص في بر الغرب ولها نخيل وكروم ومزدرع" وقال الشريف الادريسي في كتابهِ نزهة المشتاق "ان اسنا من المدن القديمة من بناء القبط الاول وبها مزدرع وبساتين حسنة وبها بقايا بنيان القبط وآثار عجيبة" . ولم يبقَ ظاهرًا من هذه الآثار الاّ رواق هيكلها القديم وقد كشفهُ محمّد علي باشا الكبير لما جاء هذه المدينة سنة ١٨١٣ . ولم تزل بيوت السكّان محدقة بهِ وقائمة على اطلالهِ متخذة جدرانهُ وما تراكم فوقها بمرور الايام اساسًا لها ولذلك اضطررنا ان ننزل اليهِ بسلم صنع حديثًا . وعمد هذا الرواق وجدرانهُ الداخليّة وسقفهُ منطاة بالرسوم والنقوش والكتابات القديمة ولم تزل الالوان البديعة على تجاوز عهدٍ في نضارتها كانها الصقت بها بالامس وعليهِ اسماء كثيرين من القياصرة الاول كطيبار يوس وجرمانيكس وادريانوس وانطونيوس الّذين كانوا في القرن الاول والثاني للميلاد وعليهِ ايضًا اسم نمس الثالث الذي حكم مصر قبل الميلاد بالف وستمئة سنة والظاهر انهُ هو الذي بنى الهيكل الاصلي ثم اضاف اليهِ القياصرة هذا الرواق . وعلى السقف صورة منطقة البروج وهي من ايام القياصرة

ونشأ باسنا جماعة من كبار العلماء كالامام ابن الحاجب النحوي المشهور صاحب الكافية والشافية وهو كردي الاصل ولد بها سنة ٥٧٠ وطلب العلم بالقاهرة ودمشق ومات بالاسكندريّة سنة ٦٤٦ للهجرة . والكمال الاسنوي والقاضي نور الدين الاسنوي والشيخ جمال الدين الاسنوي صاحب كتاب الاشباه والنظائر وهو الذي رثاهُ البرهان الفهراطي بقولهِ

نعم قُبضَتْ روح الفلا والفضائلِ بموت جمال الدين صدر الافاضلِ
وما نحنُ الاّ ركب موت الى البلى تسيّرنا ايامنا كالرواحلِ

وهذا سبيل العالمين جميعهم فما الناس الا راحلٌ بعد راحلِ

وكانت وفاته سنة ٧٧٧ للهجرة

وادفو لا يدل ظاهرها على شيء من عظمتها السابقة ولكن هيكلها لم يزل محفوظًا اكثر من كل الهياكل المصريّة التي زرناها وافضل في ذلك للاتربة الكثيرة التي سفتها الرياح عليهِ وطمرته بها فحفظته من ايدي المخربين الى ان جاء الشهير مريت من قبل الحكومة الخديويّة ونفض عنهُ غبار النسيان . وقد شرع في بناء هذا الهيكل بطليموس فيلوباتور الذي ملك في اواخر القرن الثالث قبل المسيح واتمهُ بطليموس فيلوميتور و بورجيتس الثاني وغيرهما من البطالسة . وطول الهيكل كلهِ ٤٥٠ قدمًا وطول البرجين اللذين على بابهِ ٢٥٠ قدمًا وعلوها ١١٥ قدمًا و يصعد اليها بسلم فيها ٤٠ درجة والصعود عليها سهل لقلة ارتفاع الدرجات ويُدخل من الباب الى دار فسيحة فيها على دائرها ٣٢ عمودًا والشكل المقابل صورة هذا الهيكل كما يراهُ الواقف في صحن الدار اذا نظر الى الباب الاول والبرجين اللذين على جانبيهِ . ويدخل من هذه الدار الى دار ثانية وثالثة الى ان يوصل الى المحراب وفيهِ خزانة من المرمر الازرق جدرانها صفيلة كالمرآة وكان الصقر المقدّس معبود المصريين القدماء يحفظ في هذه الخزانة ولم تزل تماثيله مطروحة في دار الهيكل محطمة . وحول المحراب غرف كثيرة لوضع الآنية المقدسة وحولها سور شاهق محكم البناء يحيط بها وبالدور التي امامها الى البرجين الاولين وسطحهُ الداخلي مغطى بالنقوش والكتابات وكذا كل جدران الغرف الداخليّة والخارجيّة وقد علم منها امور كثيرة متعلقة بتاريخ المصريين وعوائدهم . واسم ادفو بالقبطيّة اتبو وبالقلم المصري القديم تب وسماها اليونان ابولينوبوليس العظيمة وكانت من اعظم مدائن الصعيد في ايام الرومان

ونشأ بادفو كثير من العلماء منهم محمّد بن علي الادفوي النحوي والكمال جعفر الادفوي صاحب كتاب الطالع السعيد في نجباء الصعيد ومحمّد بن حسين الطبيب وغيرهم

ومررنا في طريقنا الى اصوان على جبل السلسلة المسمّى باليونانيّة سلسلس ويضيق مجرى النيل هنا حتّى يبلغ نحو الف قدم عرضًا . وفي جبل السلسلة مقالع الحجارة الرمليّة الصلدة التي قطعت منها حجارة طيبة وغيرها من المدن المصريّة القديمة . وبلغنا اصوان في ١٦ من الشهر وهي سيين القديمة وسكانها الآن خليط من المصريين والاتراك والبرابرة والسودانيين والبدو واليونان وكان لها تجارة واسعة قبل التحلي عن السودان واشتهرت قديمًا بمقالعها من المرمر الازرق والاحمر والاسود . وقد زرنا هذه المقالع ورأينا فيها المسلة

المشهورة التي فُصِّلت ولم تُنحَت وطولها ٥٩ قدمًا وعرض احد جوانبها من عند قاعدتها اكثر من احدى عشرة قدمًا وهي من المرمر الاحمر وعلى ظهرها تلوم غير غائرة كأن احد المحدثين اراد قطعها حجارة ثم عدل عن ذلك · ورأينا هناك ما يدل على ان المصريين

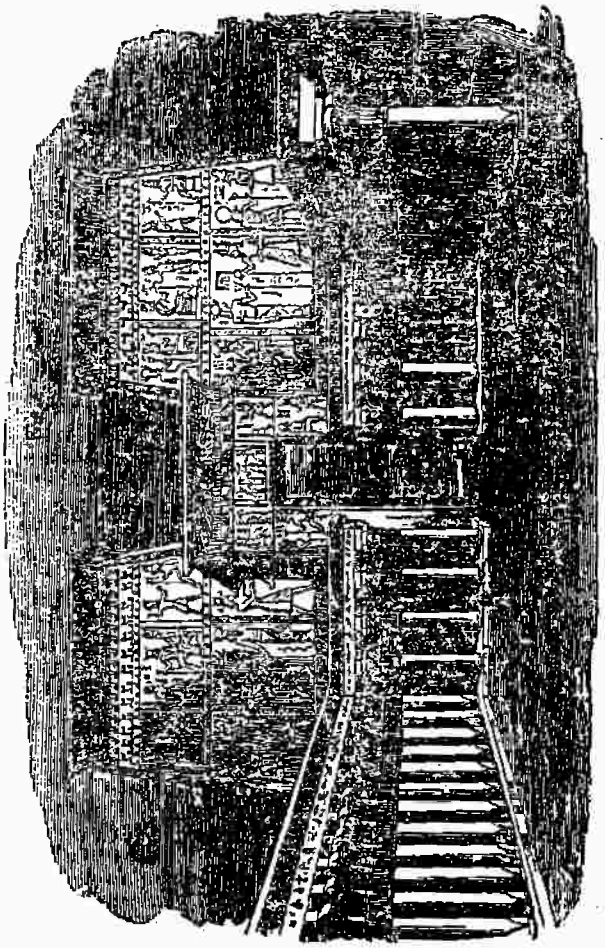

هيكل ادفو

القدماء كانوا ينحتون الحجر ويخرقون فيه خروقًا ضيقة يضعون فيها اسافين من الخشب ويبلونها بالماء لكي تتمدد وتنفصل الحجر بتمددها · وركبنا من هناك الى مكان يسمى المحطة ثم نزلنا في الزوارق وعبرنا النيل الى جزيرة فيلة المسماة بانس الوجود وهي مغطاة بالخرائب والانقاض اشهرها خرائب هيكل ايسس الذي شرع في بنائه بطليموس فيلادلفس واتمهُ الملوك الذين

خلفوهُ وبذل الصنّاع فيهِ اقصى مهارتهم والملوك غاية كرمهم ولذلك جاء من ابدع الهياكل المصريّة الباقية الى عهدنا بعد هياكل طيبة وهيكل ادفو . ويوصل اليهِ بروافين من الجهة الجنوبيّة ولهُ برجان على بابهِ الاول طولها ١٣٠ قدمًا وارتفاعهما ستون قدمًا وعليهما صورة

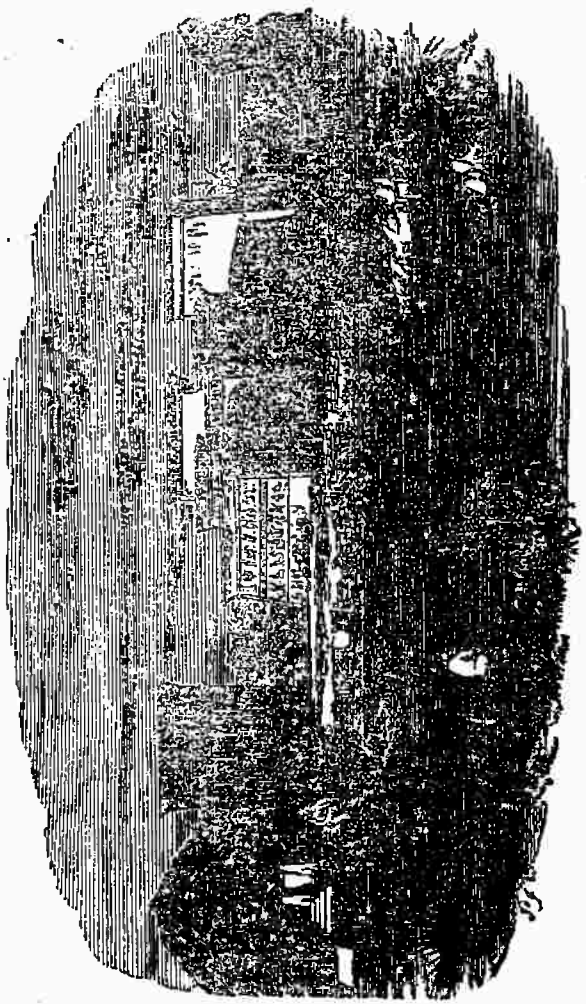

بطليموس فيلومتر وقد رفع فأس الحرب وهمَّ بضرب عددٍ من الاسرى بعد ان امسك بنواصيهم . ويوجد مثل هذه الصورة على اكثر الهياكل المصريّة كأن اولئك الملوك كانوا يرون بتخليد فظائعهم اعظم فخر لهم . وفي الباب كتابة بالفرنسويّة تشير الى وصول الجنود الفرنسويّة الى ذلك المكان حينما غزوا القطر المصري . وداخل الباب دار قسيمة فيها

عن اليمين صف من العُمُد المزخرفة ووراءها صف من الغرف وعن اليسار هيكل صغير وفي صدرها باب آخر يُدخل منهُ الى دار الهيكل ثم الى الهيكل نفسهِ . ويقال ان هذا الهيكل جعل كنيسة في القرن السادس ولذلك يرى رسم الصليب على بعض حجارتهِ والظاهر من بعض الكتابات التي عليهِ ان عبادة الاصنام بقيت فيهِ حتَّى سنة ٤٥٣ للمسيح اي الى ما بعد امر الامبراطور ثيودوسيوس بسبعين سنة

وجدران هذا الهيكل واعمدتهُ مغطاة بالنقوش مثل غيرهِ من الهياكل المتقدِّم ذكرها . والى جنوبيهِ بناءٌ بديع قضى الزمان على ذويهِ قبل ان يتموا نحت حجارتهِ ونقشها ولم تشتد عليهِ وطأة المخرِّبين فبقي لهُ شيءٌ من رونقهِ فجلسنا فيهِ حول مائدة اعدها لنا طهاة الحجاجات كوك وقد جمعت شهيَّ الطعام ولذيذ المدام . وفي الشكل المقابل صورة هذه الجزيرة وهياكلها واهراجها

وقد رأيت في هيكل هذه الجزيرة وفي كل الهياكل المصريَّة ان الصور والنقوش القديمة مشوَّهة تشويهًا كاد يمحوها كأنَّ رجلاً مسلك قد وماً محددة ونقشها بها بقشاً . وقد فتشت في كتب السياح والباحثين عن سبب هذا التشويه وسألت عنهُ كثيرين من العلماء كالاستاذ سايس والمستر بتري والمستر واس والدكتور غرانت بك وغيرهم فوجدتُ انهم يظنون ان الفرس او النصارى او العرب شوَّهوا هذه النقوش انتقامًا او لغاية دينيَّة . ويُرَدُّ على القول الاول ان هذا التشويه عامٌّ للنقوش التي نقشت قبل ايام الفرس وبعد ايامهم كأنَّ يدًا واحدة شوَّهت الجميع ويُرَدُّ عليها كلها ان النقوش التي كانت طامسة بالسناج كما في بعض غرف هيكل انس الوجود او مدفونة بالتراب كما في بعض نقوش هيكل ادفو غير مشوهة مثل غيرها وكذلك كل النقوش العالية جدًّا او التي يصعب البلوغ اليها او يصعب الوقوف امامها ولو على سلم . والتشويه مقتصر على النقوش نفسها دلالةً على ان المشوِّه لما كان متأنيًا جدًّا في عمله ولو كان قاصدًا تشويه الرسوم انتقامًا او لغاية دينيَّة لاكتفى بتشويه الوجوه ولم يهتم بتشويه اللباس او لاكتفى بضربات قليلة يضرب بها كل رسم او لأصاب ضربة الرسوم وما حولها . ولدى تأملي في ذلك كلهِ ارتأيت رأيًا آخر وهو ان النقوش شُوِّهت منذ عهد غير بعيد وان الذين شوَّهوها صنَّاع قصدوا نزع الطلاء المدهونة بهِ لاستخدامهِ في صناعة الخزف القيشاني الذي كان يُصنَع في القطر المصري . فان الطلاء المذكور مركَّب من اصباغ معدنيَّة ولا يسهل نزعهُ الاَّ بنقش الحجر ثانية فينتشر الطلاء حينئذٍ عن القطع المتخلفة منهُ . وقد اطلعتُ الاستاذ سايس على هذا الرأي فاستحسنهُ وصوَّبهُ . ومن المحتمل ان يوجد في تاريخ هذه البلاد اي

في اخبار اهاليها ما يزيد ذلك

والمارّ عنا هيكل ابس الوجود وماحولهُ من الرضام نزلنا الى الجندل الاول من جنادل النيل وهو المعروف بالشلال واذا نحن بنجم غفير من البرابرة والسودانيين يلقون بانفسهم في اعلى الشلال فيهلهم تيارهُ وهم يجرون معهُ بقوّة عضلاتهم وسرعة حركاتهم فلا ينالهم منهُ أذًى . ثم ركبنا الزوارق وعبرنا بها الشلّال ولم نخشَ بأسهُ لمهارة الجذفين وقوة عضلهم . وههنا كانت نهاية سياحتنا جنوبًا

واصوان مدينة قديمة وقد كشف فيها السر غرنفل باشا سردار الجيش المصري مدافن من عصر الدولة السادسة والدولة الثانية عشرة واشتهرت في عصر البطالسة اذ عدّها فلكيو الاسكندريّة على خط السرطان لان فيها بئرًا تقع فيها اشعة الشمس عمودية وقت الانقلاب الصيفي على زعمهم . وقد ثبت بعد ذلك ان هذا الزعم فاسد وان خط السرطان جنوبي اصوان ولكن سترابو وسنيكا ولوكان وبليني وغيرهم من المؤرخين بقوا على الزعم الاول وتابعهم كتّاب العرب فقال المقريزي "ان بعدها عن خط الاستواء اثنتان وعشرون درجة ونصف فالشمس تسامت رؤوس اهلها مرتين في السنة عند كونها في آخر الجوزاء او في اول السرطان وفي هذين الوقتين لا يكون للقائم باصوان نصف النهار ظلٌّ اصلاً" . وسبب هذا الخطإ قصر الظل الذي يلقيهِ الشبح القائم فيها في الوقت المشار اليهِ لقربها من خط السرطان . وبقيت اصوان ميناء الغزاة وطعمة للنوبة والمصريين مدة قرون كثيرة الى ان استتبّ فيها الامن في عهد العائلة الخديويّة

اما السفينة هتسو التي سافرنا فيها فقد أتي بادوارها من انكلترا وبنيت في القاهرة وجُمعت فيها كل اسباب الراحة والرفاهة . وهذه في اول مرّة علت فيها ظهر النيل ولانها البخاريّة ثلاث اساطين بحسب اختلاف ضغط البخار وهي بقوة اربع مئة حصان ولكنها لا تستعمل كل قوتها وقلما كانت تجري بنا اكثر من اثني عشر ميلاً في الساعة . وغرفها وطعامها وشرابها واسرّتها وحماماتها ومغاسلها وخدمتها كل ذلك من الطراز الاوّل بشهادة جميع الذين كانوا فيها . وكان الخواجه جون كرك نفسهُ معنا وهو من ذوي الاقدام الذين عركوا الدهر وادار والاعمال العظيمة الواسعة النطاق بهمة لا تعرف الملل وقد كلّل الشيب مفرقهُ ولكنهُ لم يمحُ علامات البشر والابتاس على وجههِ فكان يعامل جميع ضيوفهِ كانهُ ضيفهم وهم اصحاب السفينة وما فيها . وقد اطلعني على كتاب فيهِ رسائل كثيرة أُرسلت اليهِ من الملوك والامراء والعظماء الذين سافروا معهُ يشكرون لهُ ما لقوا من همتهِ وانتظام اعمالهِ وفيها رسالة بالقلم

المصري القديم فكتبتُ تحتها هذه الابيات

حُييتَ يا كُلك يد النيل الذي ... حسدتْ سفينتُهُ سفينةُ نوحِ
انشأتَ للسبّاح املوبًا به ... سهّلتَ ما في السبح من ترجيحِ
ما قلتُ ذلك مادحًا من كان مم ... دوحَ الملوك فذاك فوق مديحي

الخاتمة — لا اريد ان اختم هذه الرسائل على قلة ما فيها ما لم أشر الى ما خامر نفسي عند تفقد هذه الآثار العظيمة فاني كنتُ كلما رأيتُ هيكلاً او انقاض هيكل انتفت همةٌ ويسرة لارى مساكن السكان الاقدمين ودور علمهم فلا ارى لذلك عينًا ولا اثرًا . ولم اشاهد في هذه السياحة كلها من مباني الاولين الاَّ الهياكل والمدافن وآثار قصر واحد من قصور الملوك حتَّى لم تبقَ عندي شبهة في ان السكان الاولين كانوا يسكنون بيوتًا من اللبن مثل بيوت المتأخرين وانهم شادوا هذه الهياكل ونحتوا تلك المدافن مخفرين لملوكهم وكهنتهم وعظمائهم ولم يكونوا الاَّ عبيدًا لهم وكان ملوكهم قساةً عتاة همهم جشد الجنود والزحف على البلدان البعيدة لاستعباد اهاليها وسبي ذراريهم والنهب باموالهم . فتأملتُ ذلك كله وكنت اقابل في طريقي الى القاهرة بين احوال المتقدمين والمتأخرين واراجع خلاصة تواريخهم واخبارهم فلا ارى لي مندوحة عن الحكم بان راحة الرعيَّة في عصرنا هذا اتمُّ منها في عصر الفراعنة والبطالسة والقياصرة وكل من تولّى هذه البلاد بعدهم الى عهد توفيقها . ففي عصره وعصر اسلافه لم ينشأ هرمٌ كهرم الجيزة ولا هيكل كهيكل الكرنك ولا مدفن كمدفن سقي ولا مسلة كمسلة الاقصر ولا حُشد جيش كجيش رعمسيس ولكن فُتحت المدارس وأُنشئت المعامل وبُنيت القناطر ومُدّت سكك الحديد ونصبت اسلاك التلغراف وانتظم امر البريد

ومعامل القند[1] الشهيّ احبُّ من ... صرحٍ يشاد لخدمة الحيوانِ
ومداخنٌ فوق المعامل رُفعت ... لأحبُّ من نُصُب ومن تيجانِ
ودخان آلات البخار وريحه ... لاحبُّ عندي من دخان لبانِ
وقناطرٌ خيريَّةٌ اولى وانـ ... ـفعُ من جميع معابد الاوثانِ
والحكم بالانصاف والقسطاس افـ ... ـضل من جباية ايعد البلدانِ
ووزارة وطنيَّة تسعى الى ... خير العباد بها عُلَى الاوطانِ
فانعمْ ابا العبّاس في ما قد حبا ... كَ الله من مُلكٍ رفيع الشانِ
واحكمْ بعدل الله بين عباده ... واستعبدِ الانسانَ بالإحسانِ

(١) اي نبريتات السكر